أجراها تيسير النجار عبر 5 سنوات

«تأمل أمام ينابيع تتفجر»: حوارات مع ثريا ملحس

عمان ـ «القدس العربي»:

صدر حديثا للشاعر تيسير النجار كتاب «تأمل أمام ينابيع تتفجر» عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع، والشركة الجديدة للطباعة، وهذا الكتاب مجموعة من الحوارات الصحافية المهمة والتي أجراها عبر خمس سنوات مع الأستاذة الباحثة الدكتورة ثريا ملحس وتعكس بعضا من السمات الأساسية لتجربتها من حيث الرؤية والموقف والتجربة والمضمون، التي لا تنفصل همومها الذاتية والفردية عن الهموم الانسانية والقومية والمحلية.

ثريا ملحس التي أثرت المكتبة العربية بما يزيد عن الخمسين كتابا في مجالات وصنوف الأدب المختلفة خلال الأعوام من 1947 الى الآن تستحق أن نتوقف مطولا على آرائها في الأدب والوجود حتى يتنسى لنا معرفة رؤياها عن كثب ومن هذه الغاية ينطلق هذا الكتاب كما يقول النجار في مقدمته.

تكشف ثريا ملحس عبر الكتاب دفاعها الأكيد عن القيم الروحية في حضارتنا العربية وتصفها بانها: «قيم انسانية عالمية همها اسعاد الانسان والمحافظة على حريته وكرامته وأمنه في عيشه وعمله».

بدأت حياتها الكتابية بالشعر الذي ظل لصيقاً بها تعبر من خلاله عن قلقها وحيرتها وأسئلتها صوب ذاتها وصوب المفردات الجذرية في الوجود، ورغم أعمالها الشعرية التي بلغت أربعة عشر ديوانا، الا أن السؤال المهم الذي نسأله ماذا قدم لها الشعر سوى أنه حمل آمالها وأمانيها وأفكارها وأحلامها وتأملاتها.

ولأنها ليست شللية ولم تنتم لحزب ولم تكن رئيسة مجلة أو جريدة ولأنها كما تصف «غير اعلانية واعلامية» فان أعمالها الشعرية لم تستوقف النقاد الأكاديميين وبالتالي ما تزال تجربتها الطويلة بكرا على الصعيد النقدي الذي: «ما زال ذاتيا، مرتبطا بالأهواء والشللية والفئوية والعقائدية حتى الحزبية» كما تصف.

مواقفها واضحة جدا فيما يتعلق بالأنثى العربية حيث تقول: «بأن المشكلة الأساسية لها في بلادنا العربية هي عدم معرفة هوية نفسها»، وكذلك موقفها واضح ولا يقبل الجدال فيما يتعلق بالاعلام العربي الذي معظمه: «محزب، أو مسيس، أو مرتش، أو مبرمج».

ومثلما تؤرقها قضايا الأدب والشعر فان أحداث الأمة العربية التي تتابع أحداثها: «بألم وأسف وربما ببكاء» تؤرقها. أما سؤالها: «أين نحن اليوم من تلك الحضارة العالمية؟» فانه السؤال الذي يؤرقنا جميعا.

لا يمكن لنا أن نلخص تجربتها الكتابية، ولكن يمكن أن نصفها بأنها تجربة: «توائم بين الانسان والطبيعة وبينه وبين المجتمع، وبينه وبين القيم الروحية والانسانية».

تحلم ثريا ملحس: «بأن تظل اللغة العربية العظيمة منبعا وجسرا لثقافتنا كلها، لكي تصبح لغة عالمية كما كانت في ماضيها، حاملة الثقافة المشرقة لكل البشر، والحضارة التي شعت على العالم حين كان العالم في ظلمات».

حين نشرت ديوانها الشعري الأول «النشيد التائه» والذي ضم قصائد مختارة لها من السنوات 1947 الى 1949 لم تكن تسمية «قصيدة النثر» معروفة وبالتالي فإن باب ريادتها في كتابة «قصيدة النثر» ما زال ينتظر من يطرقه نقديا. وتقول ثريا ملحس عن ذلك: «وعلى الرغم من أن النقاد يغمطون حقي في الريادة، فلا يضيرني أبدا بل يجعلني أبتسم أسفا».

يوضح الكتاب رومانسية ثريا ملحس، ويشرح قضيتها الكبرى، ويجيب على أسئلة ثقافية عديدة من خلال رؤيا ومواقف عروبية محملة بتجاربها الطويلة، ويضيء جوانب لها صلة بواقعنا العربي وهمومه ومآسيه، ويربط بين ماضيها الكتابي وحاضرها، ويتطرق لحبها المذهل للتراث وعلاقته بالمعاصرة، ويظهر مدى غربتها الوجودية ويعبر عن فلسفتها في الحياة شعرا، ويساهم في الكشف عن مآسينا التي كبرت وتكاثرت على حد تعبيرها «كأنها الوباء»، ويحاول أن يكسر بعض الأوهام التي تدور حول المرأة العربية وأبرزها الوهم الذي يقول أن المرأة: «جعلت من ضلع زائدة من ضلوع الذكر».

ويحدد الرابط بين «مآسينا الساسية والاجتماعية جملة وتفصيلا»، ويتساءل هذا الكتاب لماذا لم «يكرم شعر ثريا ملحس أو نال جوائز»، ويناقش أفكارها بحرية، ويتطرق لما تعلمته من الانسان ومن الطبيعة: «تذهلني الطبيعة. ويذهلني الكون. نعم! ولا أرى فيها تنافرا فأنظر الى السماء وأفلاكها ونجومها وكواكبها كيف تسير وتدور بحساب مدهش!»، ويتناول فلسفتها في الحياة ونظراتها الى الحاضر والمستقبل وكيف يتوحد في شعرها الماضي والحاضر والمستقبل، ويطرح اعجابها الشديد بالصوفية وتحديدا صوفية ابن الفارض في تائيته الكبرى، ويلجأ لفهم علاقة الشعر بعصرنا: «ويبقى الشعر حاضرا طالما هناك انسان على الأرض»!

ويسجل هذا الكتاب رؤيتها وموقفها في الكتابة حيث تقول: «مسكونة بالثورة والغضب والحزن الوجودي والالتجاء الى الله ليمنحني القوة والاستمرار بنوره الذي يغمرني ويهديني».

يتبدى في تجربة ثريا ملحس الابداعية الكثير من سمات الريادة والحداثة عبر شعرها الذي يمتد منذ أواسط أربعينيات القرن الماضي حتى الآن. وتتراءى هذه الريادة عبر ما انشغلت به من قضايا فلسفية ووجودية وفكرية، وهموم سياسية واجتماعية، بسمات وجودية وسوريالية ورمزية في أعمالها الشعرية، ومنهجية بحثية علمية دقيقة جدا في مباحثها التراثية.

كما نكتشف، تعمل الشاعرة بلا انقطاع، تحمل مشروعها الابداعي وحدها ولا تحتاج الى أحد ولا تسعى لارضاء أية مؤسسة ثقافية وأي كائن. اقتربت منها ورأيتها كيف تتحمل مشقة العمل وحدها، رأيتها عن قرب، وعرفتها تعتني بسعادة البشرية التي من الصعب الاعتناء بها، وتعلمت منها كيف يمكن لي أن أرى جمال الينابيع وهي تتفجر في ثقافة تحاول ان تختصر بجمالها الطبيعة... المكان... الزمان... الانسان.

امتد هذا الكتاب عبر خمس سنوات من 2001 الى 2006 مشتملا على نبذة من سيرتها كتبتها في أعوام لاحقة حتى 2006 ليتسنى للمتلقي معرفة اخلاصها الشديد للمعرفة البشرية.

عقيدتها كالآتي: تعد نفسها انسانا قبل كل شيء. فالكرة الأرضية باتت صغيرة الحجم بمسافاتها، قريبة بأخبارها، عالمة بمخترعاتها. تفتخر بعروبتها، وبحضارة قومها العرب، اذ تسعى دائما لاظهار ايجابيات تلك الحضارة التي سطعت بشموسها على الغرب طوال القرون الوسطى، فلا ترى الحضارة الغربية مناقضة للحضارة العربية، بل تراها امتدادا لها، ومددا عبرها. أما المرأة فترى فيها انسانا لا جدال في ذلك، لها حقوق وعليها واجبات الانسان بالتساوي. ويزعجها كل قانون مجحف بحقها، مهما كان مصدره. وهي دائما مع المظلوم، امرأة كان أم رجلا. كما يزعجها تصنيف الأدب بالنسبة الى جنس الانسان، فالأدب لا يعرف حدودا ولا سدودا، لأنه انساني قبل كل شيء. وأخيرا، لا آخرا.. تدعو البلاد العربية من محيطها الى خليجها، الى اضافة «ذكرا وأنثى» مفردا أو جمعا، في دساتيرها ـ قد تبدو غريبة لغير المدركين، أو لغير الانسانيين ـ الى «المواطن» أو «المواطنين»، أو ربما عبارة: «المواطن والمواطنة»، بذلك تكف المرأة العربية عن مطالبتها بالمساواة التي منحها اياها خالقها عز وجل، فلا سلطة لأحد عليها! كما يزعجها حذف «تاء التأنيث» من وظائف لم تكن الأنثى تشغلها من قبل، بل تبوأتها حديثا، كأن تلك الوظائف لا تكون الا للذكر!! ولن تكون إلا له! فلماذا يعبث المسؤولون والاعلاميون باللغة العربية وأحكامها؟! أليس في ذلك اهانة للأنثى العربية، فضلا عن الاهانات الأخرى التي جعلتها في مرتبة أدنى من الذكر؟!! كما تحلم دائما بوحدة عربية، من محيطها الى خليجها، تدعى «الولايات العربية المتحدة»! من يدري لعل الحلم يتحقق!

ومما جاء على الغلاف الخلفي للكتاب «تأمل أمام ينابيع تتفجر» للزميل النجار أقوال عن تجربة أ. د. ثريا ملحس منها رأي الأديب اللبناني ميخائيل نعيمة الذي يقول: «قرأت المجموعة «ديوان ملحمة الانسان»، فسرني منها نزعة متزنة الى التجديد في القالب وفي المضمون. فهي غير الطفرة الجامحة التي نشهدها في الكثير من نتاج شعرائنا المعاصرين، التي توغل في الحذلقة الشكلية وفي النغمية، وفي تحميل المفردات غير معانيها، أو فوق معانيها، ثم في تقطيع أوصال الشعر بحيث يغدو وكأنه لا في العير ولا في النفير، فلا هو شعر ولا هو نثر».

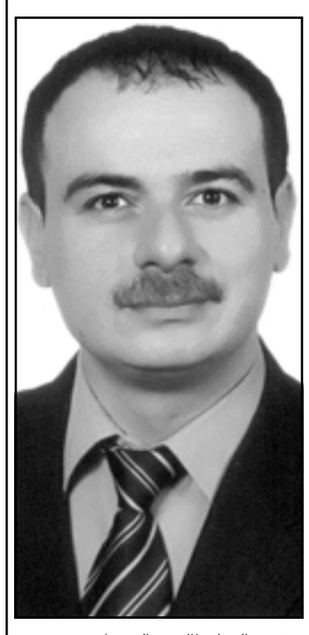

تيسير النجار (القدس العربي)

بعد اعلان وزير الثقافة عن انشاء لجنة دينية للرقابة؛

مثقفون يعتزمون الاستقالة من لجان المجلس الأعلى للثقافة.. وآخرون يرون اللجنة مقبرة للثقافة المصرية

القاهرة ـ «القدس العربي» من محمود قرني:

يعتزم كل من المخرجين السينمائيين داوود عبدالسيد ومحمد كامل القليوبي تقديم استقالتيهما من لجنة السينما بالمجلس الأعلى للثقافة، في حال قيام وزير الثقافة فاروق حسني بانشاء اللجنة الدينية التي يزمع الحاقها بلجان المجلس الأعلى للثقافة للرقابة على أعمال الوزارة، على خلفية المعركة الدائرة الآن بسبب تصريحات الوزير المناهضة لظاهرة الحجاب، في الوقت نفسه أصدرت حركة أدباء وفنانون عقب بيانها الصادر في الأسبوع الماضي بيانا آخر قالت فيه: في الوقت الذي حذرت فيه حركة أدباء وفنانون من أجل التغيير، في بيانها الصادر في الأسبوع الماضي، من التسليم بتحول شرعية الدولة التحديثية الي شرعية الكهنوت وصكوك الغفران، أطلق وزير الثقافة تصريحات تؤكد اعتزامه انشاء لجنة للثقافة الدينية تتبع المجلس الأعلى للثقافة وتكون مهمتها الرقابة على الأعمال التي تنهض بها الوزارة وذلك على خلفية المعركة الزائفة بين وزير الثقافة وجماعة الاخوان حول ظاهرة الحجاب وهي الظاهرة التي أهدرت جهد المجتمع وطاقته في مناقشة قضايا زائفة لا تتصل بهموم المواطنين من قريب ولا من بعيد، فتشدهم عما يتعرضون له من قمع وتجويع وتراجع في الدور المصري على المستويات كافة، واستخدم فيها الدين لأغراض سياسية واضحة بين طرفي الصراع الوهمي لتحقيق مكاسب سياسية.

وتعلن جماعة «أدباء وفنانون من أجل التغيير» رفضها لهذه المعركة، وادانتها بوصفها تعبيرا عن أزمة المجتمع المصري في مواجهة مشاكله الحقيقية، واستثماره سياسيا في أمور تناقض طبيعته، كما تعلن أن سعي الاخوان المسلمين الى تأسيس سلطة دينية تعتبر وقتها مرجعاً في كل أمور الحياة والسياسة هو ما يقود المجتمع المصري الى تعميق أزماته الخانقة.

وقال البيان: اننا نرفض هذا السعي المحموم الى اعتبار الابداع الفني والأدبي والفكري منطقة ضعيفة يمكن استغلالها من كل الفرقاء السياسيين، وأن هذا السعي يجرد المجتمع من عناصره الحية المتجددة للحياة، ويمارس اعتداء سافرا على حرية المواطنين وقد تجلى هذا كله في لغة المعركة وأساليبها المتدنية في مجلس الشعب وخارجه لتسفيه الآخرين وارهابهم واغتيالهم رمزيا، مما جعل وزارة الثقافة التي يفترض فيها الذود عن الابداع وحرية الرأي تتحول الى مؤسسة رقابية قامعة بسعيها الى انشاء لجنة دينية في المجلس الأعلى للثقافة، تقوم بمراجعة ما يصدر عنه من كتب، واخضاعها لرقابة صارمة تحد من حرية الفكر، وتحجر على التفكير في المستقبل، وتنتصر لفئة من الناس تعتبر نفسها حارسا للعقيدة، وممثلة للاسلام وناطقة باسمه.

وتؤكد الحركة في بيانها مجددا رفضها لهذا الاستثمار السياسي للدين واعتبار الابداع أضعف حلقات المجتمع ومن ثم قابليته للاستثمار، ونرفض المعركة الزائفة ومما استخدم فيها من أساليب التسفيه والعنف والمناورات الساعية الى مكاسب رخيصة، وما ترتب عليها من نتائج أبرزها تحويل وزارة الثقافة الى سلطة قامعة للفكر والابداع، وحق الاختلاف، بسعيها الى تملق جماعات الاسلام السياسي عن طريق انشاء لجنة دينية تعمق مفهوم القمع والمصادرة».

وكانت الحركة قد أصدرت بيانا في الأسبوع الماضي رفضت فيه ممارسات الوزير وكذلك الاستثمار السياسي والضجيج الذي قامت به حركة الاخوان المسلمين في الشارع السياسي لتحقيق أعلى المكاسب الممكنة.

في الوقت نفسه اعتبر عدد من المثقفين أن اللجنة عمل من أعمال الرقابة الدينية على الأنشطة التي تقدمها وزارة الثقافة في مختلف فروع المعرفة، وذلك كثمن للجدل الثائر حول تصريحات الوزير التي قال فيها ان الحجاب يعكس درجة من التخلف في المجتمع المصري، وقد أكد وزير الثقافة أن اللجنة ستتكون من رجال الدين المسيحي والاسلامي لدفع ما أسماه بالثقافة الدينية الى الأمام، فيما اعتبر عبدالسيد والقليوبي أن اللجنة ـ في حال تشكيلها ـ ستكون أكبر نكبة على الثقافة المصرية طيلة تاريخها، لأنها ستكون بمثابة خضوع كامل لمعايير الدولة الدينية، فيما يبحث الفن عن درجة عالية من التمرد والحرية، وليس التكيف على هذا النحو المزري.

واعتبر الكاتب الروائي محمد البساطي أن تصريح وزير الثقافة يصب في مصلحته الشخصية ويؤكد ـ بما لا يدع مجالا للشك ـ أن الرجل يهدف الى الكسب الشخصي ولا يعنيه أمر الثقافة من قريب أو بعيد، وما هذا القرار الا رضوخ لارادة التيار الأصولي المحافظ في تيارات النخبة المصرية، وهو كسب كانوا يسعون وراءه وجاء اليهم على طبق من ذهب.

وأضاف البساطي أن تسليم مقدرات وزارة الثقافة للجنة دينية ـ أيا كانت صفتها ـ عمل مخبول ويقضي كلية على هامش الحرية الضئيل الذي تتمتع به مناخات الابداع في مصر.

فيما دعا الناشر محمد هاشم الى مزيد من الاستقالات في صفوف أعضاء اللجان بالمجلس الأعلى للثقافة وهو أمر متوقع خلال الأيام القادمة.

وكانت تصريحات وزير الثقافة بشأن الحجاب قد أثارت جدلا واسعا داخل البرلمان المصري من أعضاء حركة الاخوان المسلمين، وتضامن معهم أعضاء الحزب الوطني مخافة المكاسب التي يمكن أن تتحقق للحركة من جراء مزايداتهم على الوزير، وقد أدت تداعيات الصراع الى انطلاق عدد من التظاهرات الطلابية الكبيرة في جامعات القاهرة، والمنيا وعين شمس، فيما رفض أئمة المساجد الانصياع لتعليمات وزير الأوقاف بالبعد عن الحديث واثارة قضية الحجاب من أعلى المنابر، وشهدت الجمعة الماضية جدلا واسعا في ساحات المساجد، حيث قطع الأئمة بأن الحجاب واحد من الفروض الشرعية التي لا يجوز تأويلها، وهو ترديد لمضمون الفتوى التي صدرت عن الدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر والدكتور علي دمعة مفتي الجمهورية، وهو ما أكده عدد من أساتذة الفقه الاسلامي في وقت لاحق.

وكان وزير الثقافة قد تعرض لهجوم ضار تحت قبة مجلس الشعب دفعه للاعتكاف في منزله متهما الحزب الوطني بالتخلي عنه، غير أنه صدرت تعليمات عليا لكافة الأجهزة بالتهدئة بعد منح الفرصة لكافة التيارات للتعبير عن رأيها.

وقد عبر الروائي خيري شلبي عن رفضه الكامل لوجود مثل هذه اللجنة، وقال: انني أحترم منجزات فاروق حسني للثقافة المصرية واذا كانت اللجنة سيتم تشكيلها كإحدى لجان المجلس الأعلى للثقافة العاملة فأنا أرحب بها، أما اذا كانت مهمتها الرقابة على الفنون والابداع وأنشطة الثقافة داخل الوزارة فأنا ارفضها تماما لأن معنى ذلك أن تتحول اللجنة الى رقيب بغيض ومرفوض.

كذلك رد الدكتور محمد بدوي تقديره لدور فاروق حسني الا أنه قال: ان السياسة المصرية منذ القدم لا تقيم اعتبارا للحرية وعادة ما يكون الابداع والفن هو الضحية الأولى للسياسة، ان سعد زغلول هو الذي قدم طه حسين الى المحاكمة بسبب كتابه «في الشعر الجاهلي»، ان المجتمع المصري يتقاعس كثيرا في الدفاع عن حريته التي يجب أن يناضل لانتزاعها من أيدي الحكام الطغاة.

وقد واجه فاروق حسني أعضاء مجلس الشعب تحت قبة البرلمان، وذلك عبر عاصفة من الاستجوابات التي لم يشفع له معها انكاره تلك التصريحات التي أطلقها، وحديثه عنها بأنها تعبر عن موقف شخصي، غير أن قرار الاقالة الذي كان ينتظره فاروق حسني قد عاد الى أدراجه بعد التطمينات التي وصلته من كبار رجال الدولة وتدخلهم في الوقت المناسب لتهدئة الموقف بعد استيعاب موجة الغضب في الشارع المصري.

إصدارات جديدة

«غادة» رواية جديدة لمحمد عرابي

دمشق ـ «القدس العربي»:

عن دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع صدر للروائي محمد غازي عرابي رواية جديدة بعنوان «غادة» تعتبر استكمالاً لأعماله السابقة «العانس العاشقة، ذات الساق المبتورة، الألمانية والفارس الشرقي، آمنة...» حيث يتسلل في كل مرة الى الحياة الداخلية للمرأة. في روايته «غادة» وعبر ثلاثين فصلاً، يأخذنا الكاتب الى سيرة فتاة تنحدر من طبقة فقيرة، لكنها تطمح الى تجاوز واقعها عبر الزواج من ثري، لكنها تتزوج من ابن خالتها الحداد خوفاً من أن تصبح عانساً، فتحمله ما لا طاقة له به من أعباء مادية لينتهي بحادث مميت. تنتقل بعدها غادة الى حياة جديدة عن طريق زواجها بشقيق الزوج الذي كان معلماً للرقص، لتكتشف بعدها أنه يخونها، كما أنه أناني يعاملها كأنها خادمة، وتتزوج غادة للمرة الثالثة ابن عم زوجها، وهو شاب عابث، كان يعاقر الخمر مع ابن عمه ويخونه بمعاشرة زوجته. وتصارح غادة زوجها بحقيقة الأمر فيطلقها، ويسافر الى السعودية. وتبين لغادة أن زوجها الثالث عاطل عن العمل، وهو يحاول ابتزازها، بالاضافة الى أنه مدمن مخدرات، فتطرده من المنزل ... وتظل غادة تنحدر بمستواها ووضعها وينتهي حالها بزواج رابع من رجل وضيع.

ويبدو هدف المؤلف واضح فمن يزرع الريح يحصد العاصفة، ومن لا يقنع يدفع الثمن غالياً، وكم من زوجات حملن أزواجهن فوق الاستطاعة فيتداعى عش الزوجية وتصاب العائلة بكارثة، والمرأة التي لا تقدر الزوج المحب الخلوق المضحي بما لديه حق قدره، تواجه نوعاً آخر من الأزواج يسوقها الى سوء العذاب ويهينها، ويبقى على هذه الحال حتى يحطمها.

«يا صاح أين بلادي؟» لمايكل مور

■ يقدم المخرج الأمريكي مايكل مور كتاباً مشوقاً الى المواطن الأمريكي، يحمل غلافه صورة رمزية لمور وهو يجر عبر حبل تمثال افتراضي للرئيس الأمريكي بوش، باستعارة من سقوط تمثال صدام حسين. يقول المترجم عماد شيحة، ان هذا الكتاب يخاطب المواطن الأمريكي العادي، يخاطب همومه الداخلية ويحرض فيه ارثه الديمقراطي لمواجهة تحولات هدفها تدميره. طيبداً الكاتب بطرح أسئلة سبعة وعلى الرئيس بوش الاجابة عليها، بعضها يبدو محرجاً وأخرى من الصعب الاجابة عليها ، فمنها ما يتعلق بأحداث الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) ومعارضته تشكيل لجنة تحقيق بشأن هذه المأساة، ويخلص مور الى أن الرئيس بوش وجماعته لا يرغبون في كشف الحقيقة، لأنهم يخشون أن ينزل الشعب الى الشارع ليعرف أكثر عن أولئك الذين يحكمون بلادهم. وهناك أسئلة حول حقيقة وجود علاقات بين عائلتي بوش والعائلة السعودية المالكة، اذ يرى مؤلف الكتاب أن من حق الثلاثة آلاف قتيل، ومحبيهم الذين قضوا في الحادي عشر من أيلول (سبتمبر)، معرفة ما حدث، لتأخذ العدالة مجراها.

وتمتد سخرية بوش لتطال يسوع دبليو بوش، الذي يأخذ أوامره من الرب، فيما الرب يؤكد للذين لا يزالون يؤمنون به، بأنه الاله ربهم، ولم يوجه لبوش أمراً بغزو أي بلد، لأن قتل الكائن البشري لا يزال خطيئة ما لم يبادر هو بذلك، ويأمرهم الرب بأن يتوقفوا عن الخزعبلات التي يكررونها «ربنا بارك أمريكا» وليباركوا أنفسهم ويكفوا عن استخدام اسمه لتبرير شعورهم بالتفوق على غيرهم.

قـــص

وطني، يا مرفأ الأحزان!

علي القاسمي*

قال لي أبي وهو يودّعني في مطار بيروت:

ـ «ستعبر الى الضفة الأخرى، يا بُنيّ...»

ثم سكت فجأة وأشاح بوجهه بعيداً عني، مصوّباً نظره الى الشمس الغاربة وراء المطار وكأنّه يحاول أن يدفن دمعة مكابرة في الأفق النائي، أو يلقي بها في أعماق البحر السحيقة دون أن ألحظ ذلك. وبعد هنيهة عادت نظرته من السماء الى الأرض مثل قوس قزح واستقرّت عليّ، واستأنف كلامه قائلاً:

ـ «ستعبر، يا بُنيّ، الى الضفة الأخرى، وسترى وجوهاً جديدة، وأشجاراً مورقة، وستناديك أصوات متنوّعة. ولكن، ولكن لا تنسَ أهلكَ ونخيلك على شاطئ الفرات. لتبقَ ظلال سعف النخيل على عينيك كأهدابك، ولتبقَ أهازيجنا على شفتيك كريقك. واعلمْ أنّنا سنظلّ نناديك على البُعد، وسنذكرك كلّ يوم عند انبلاج الفجر، وابتسام الصباح، وضحكة الشمس، وزغردة الطيور الطليقة. سنذكرك كلّما استمرأنا طعاماً واستسغنا شراباً. سنذكرك مع الشمس الغاربة والنجمات الطالعة، وسنرى صورتك في وجنة القمر. سنحمّل النسيم سلاماً اليك. سنردد اسمكَ في صلواتنا داعين الله أن يحفظك ويردّك الينا سالماً...».

وقطع كلامه مرة أخرى وأشاح بوجهه عني نحو الأفق البعيد، ثم اختنقت الكلمات، ولم يسعفه صوته، فضمّني الى صدره.

لم أفهْ بكلمة، لم أنظر في عينيه، بل أخذتُ كفّهَ اليمنى بين يديّ، وضعتها على موضع القلب منّي، ثم مررّتها على وجهي، قربّتُها من فمي، لثمتُ أصابعها واحدة واحدة، نفذت رائحةُ المسك منها الى رئتيّ ما أطيب رائحتك يا أبي، وما أطيبك. كنتَ تحنو عليّ طفلاً، فأحببتُك. وعلّمتني وناظرتني فتىً فاحترمتُك. كيف أنسى يا أبي تُربة أهلي، وماء الفرات، ونخلة أُمّي. فقد تشرّبت بها روحي، وسرتْ في دمي، ونبضَ بها قلبي. وهل يحيا المرء بلا قلب؟ كيف أنسى يا أبي وطني؟ ليتني كنتُ أستطيع ذلك لحظة واحدة لأستريح، فهو يسكن كياني، ويملأ أحلامي.

ألا تعلم، يا أبي أنّني، منذ ذلك الفجر الذي احترفتُ فيه الرحيل، والشمس تشرق كلّ صباح في عيني من العراق، وتغيب كلّ أصيل في العراق، وأنّ ساعتي أدمنت توقيتَ بغداد، أينما ذهبتُ، لأنّ هذه الساعة التي أهديتَها اليّ، ذات يوم، تعمل بالنبض، بنبض قلبي الذي تجسّه في معصمي. وقلبي ينبض بحبّ الوطن.

تقول، يا أبي، أنني قد أنسى وطني حينما أعبر الى الضفة الأخرى، وأنتَ على يقين، يا أبي، أنّني في أيّ المحيطات أبحرتُ، وفي أيّ البحار نشرتُ أشرعتي، فانّ بوصلة القلب ستبقى متجهةً دائماً نحو منائر وطني، وأنّ سارية الروح ستظل أبداً ملفّعة بشال أُمّي وضفائر أختي. وسأستنشق عبير بستاننا في نسيم البحر. وسوف يغتسل طيف بلادي في مجرى مركبي، وأرى خيال أغناق نخلاتنا في الغمائم فوق السفن. وسيجري ماء الفرات، على الدوام، في عروقي وأوردتي وشرايينيّ ودمعي. وسألبثُ صادياً ظمآنَ لن أرتوي الا ببلّ شفتيّ ببضع قطرات من ماء الفرات الفرات.

وطني هو ذلك النهر المنساب برقّة في أحضان قريتنا الوديعة. وطني هو النخلات التي تحنو على النهر ويتدلّى سعفها الطويل في مجراه، فتمتزج خضرتها بزرقة السماء على صفحة مائه. وطني هو سرب البجع الذي كان يسبح مع مجرى التيار قادماً من أعالي النهر، فكنت، في طفولتي، أسبح نحوه جذلاً، أُطلقُ صرخات الفرح، أطارده بمرح، ترفرف أجنحته، يرتفع طائراً على سطح الماء، فأنبهر به.

وطني هو قبلة أُمّي على جبيني، وضمّة أُمّي الى صدرها، وحكايات أُمّي والنعاس يداعب أجفاني في دفء فراشي، وخلطة الحليب بالعسل التي كنتَ تسقيني في فطور الصباح، وجدائل أختي الكبرى وهي تقودني الى المدرسة.

وطني هو الراعية الصبيّة، عيدة، ذات الوجه الأسمر المليح المتناسق التقاطيع، والجسم الناحل الصغير، والذؤابتين المنفلتتين من عصابة رأسها السوداء. عيدة التي كنت، في صغري، أجري خلفها وهي مسرعة الى عملها في المروج، وأنا أناديها: «عيدة، عيدة» فتلتفت اليّ، ملوحة بعصاها مهدّدة، وهي تقول: «وجعة شديدة، وأيش تريد من عيدة؟» فكنتُ أضحك للهجتها البدويّة، وللحزم البادي على وجهها الأسمر.

هل كنتُ أعبث، يا عيدة، حين كنت تعملين بجدّ، فاستحققتُ لعنتك؟ اذن، الآن وقد أدركتُ معنى العمل بعد هذا العمر، أعذركِ واطلب منك العفو. أتدرين، يا عيدة، أنّ ذاكرتي ظلتْ موشومة بملامحك التي لوحتها شمس بابل بسحرها، موشومة بعينيك اللامعتين، بشفتيك المكتنزتين، وببريق أسنانك اللؤلؤية. ما تذكرتُ طفولتي، يا عيدة، الا وكنت أنت تركضين في مروجها الخضراء بهمّة وحزم، ترديّن نعجة شاردة الى القطيع، أو تنحنين لتحتضني حملاً لم يستطع مجاراة القطيع، أو تعدّين غنمك بالعصا قبل العودة الى المراح، وتركضين وتركضين وكلبك يجري خلفك دوماً كما لو كان مشدوداً بخيط الى أذيال ردائك ذي القبّ المطرّز والسلهام الطويل.

ولكنْ، قولي لي، يا عيدة، أين أمسيت اليوم؟ هل عدا عليك الزمن الذي لا يرحم كما عدا عليّ؟ هل غزا الشيب مفرقك؟ هل أقعدتك الشيخوخية فلا تستطيعين المشي، بله الركض؟ أم أنّ يد الموت قطفتك قبل الأوان كما كنا نقطف التفاح في بستاننا؟ وكيف مرّت حياتك؟ هل كنت سعيدة؟ أم أنّ الناس في القرى والأرياف لا يعرفون معنى السعادة؟ حسناً، هل تزوجت؟ وهل كان زوجك رجلاً طيّباً؟ هل عاملك برفق؟ هل أنجبت أطفالاً بمثل ملاحتك، وسمرتك، وحدّة لسانك؟ وأين هم الآنَ؟ هل أُتيحت لهم فرصة التعلّم في المدرسة؟ هل مارسوا أعمالاً أقل عنتاً من الفلاحة والرعي؟ أم التهمتهم نيران الحروب التي دمّرت وطنيَ؟

أتذكرك، يا عيدة، فأضحك من أعماقي. أنا الذي نسيت طعم الضحك في فمي منذ سنوات. أضحكُ من كلماتك التي كنت تنطقينها بنبرة حادّة: «وجعة شديدة، وأيش تريد من عيدة؟» هل كنت تعدّينني طفلاً شقيّاً يبتغي اضاعة وقتك فتردعيني بأقسى الكلام، وبتلويح من عصاك الطويلة؟

أتذكّر أنّ أمي ذات يوم طلبت من قارئة كفّ ألّت بقريتنا أن تقرأ كفي وكنتُ يومها صبياً. أخذت المرأة كفّي، بسطتها بين راحتيها، أطالت النظر اليها، ثم تحوّل نظرها تحديقاً، اكفهرّ وجهها، زمّت شفتيها، لوت عنقها، أدارت وجهها نحو اليمين ونحو الشمال، كأنّها تبحث عن مهرب. لم تُرد أن تنطق بما رأت، لم تشأ أن تصدم أُمّي. تُرى هل رأت تلك المرأة فعلاً دمي يُسفَح في غربتي؟ أم بلغت أُذنيها صدى بكائياتي السومريّة.

رفعتُ رأسي لأنظر في وجه أبي. لمحتُ احمراراً في عينيه. قرأتُ فيهما غضباً يُخفيه مثل جمر تحت الرماد، أحسستُ أنّه يدثّر قلقاً عميقا بكبرياء جريحة، كما يقلق أسد مكبّل في قفص وهم يقتادون شبله بعيداً عنه، لا يدري الى أين. بدت على ملامح وجهه تلك الهيئة التي استحوذت عليها يوم أخبروه باستشهاد ابنه البِكر أحمد في معركة جنين في فلسطين.

ولكي أغيّر الموضوع، سألته:

ـ «وكيف خلّفت أُمّي وراءك، يا أبي؟

قال بإباء:

ـ «كم كانت تودّ مرافقتي لرؤيتكَ. ولكنّي كنت أعلم أنّ قلبها لا يحتمل ساعة الوداع فأقنعتُها بالبقاء».

تمنيتُ في تلك اللحظة أن أعود الي قريتي وأن لا أسافر الى أمريكا. تمنيتُ أن أعود وألقي ببقايا روحي المبعثرة في أحضان أمي، أطوّق عنقها بيديّ، أقبّل وجنتيها، وألثم يديها، وأشمّ رائحة الحناء في ذوائبها البدويّة. ولكنّني غادرت البلد مُكرَهاً نزولاً عند رغبة أبي والحاح أمي وحثّ الرفاق لي. وجئت الى بيروت مع رفيق لي حفاظاً على حياتنا. ولكن ما معنى حياتي وأنا بعيد عن أهلي ونهري وبستاني ونخلاتي وجوادي ومروجي الخضراء. وهل يبقى معنى لذاتي مجرّدة من أحاسيسي ؟ كلّ الكائنات في قريتي تتشبث بجذورها شامخةً حتى الموت، فأشجار النخيل في بستاننا تموت وهي واقفة؛ وأسراب البلابل تموت وهي محلّقة؛ الا أنا، فها أنا ذا أسير، بخنوع مطأطئ الرأس، أبحث عن منفى موحش الدرب لأدفن فيه خوفي وجُبني.

لم أحمل معي شيئاً يُذكَر من قريتي، مجرّد أشياء صغيرة ليست ذات شأن ولكنّها كانت تعني لي الكثير الكثير. وضعتُ في حقيبتي حفنة تراب من بستاننا، وخوصة خضراء انتزعتها من احدى سعفات نخلتنا برفق وبيد مرتعشة وشفتين واجفتين كأنني أعتذر لها عمّا أفعل أو أتلو عليها بكائيات الوداع، وريشة من ريشات بطتي الأثيرة كانت ملقاة على حافة الحوض في حديقة المنزل، وشالاً أسود لأُمّي أخذته من صندوق ملابسها دون أن أخبرها، طويتُ فيه نايي وخبأته وسط ملابسي في الحقيبة. ولكنّ قصدي الحقيقيّ منه أن ألفّ به رأسي اذا ما داهمتني الحمّى يوماً ما لعلّ رائحة أُمّي العالقة به تُشفيني مثل تميمة أو بلسم سحريّ. وارتديتُ بذلتي السوداء كما لو كان لون الفراق أسود. وعبرت باحة الدار في اتجاه الباب، ولكنني توقفتُ في وسط الباحة عند البئر. رفعت الغطاء عنها، نظرتُ اليها، حدّقتُ فيها، رأيتُ القمر منعكساً في مائها العميقة، وعادت اليّ القصة التي سمعتها عن بئري هذه، رمز الحياة والموت لي ولأمي.

■ (فقرات من رواية للكاتب عنوانها «مرافئ الأحزان» ستصدر عن دار الآداب في بيروت)

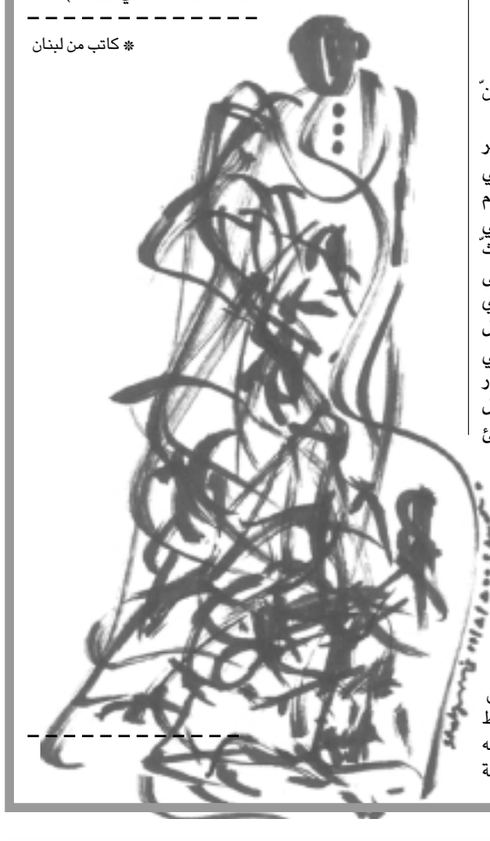

* كاتب من لبنان